

المحاضرة الثانية: تطور المجتمع الدولي

لقد مر المجتمع الدولي بعدة مراحل إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن وهي كالتالي:

المبحث الأول: مرحلة العصر القديم: (3100 ق.م إلى 476 م):

يجمع أغلب المؤرخون على أن هذا العصر يمتد من 3100 ق.م إلى غاية سقوط روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية 476 م، ولقد شهدت هذه المرحلة ظهور العديد من الحضارات التي ربطتها علاقات مع بعضها البعض وتحكمها قواعد قانونية وهي:

المطلب الأول: الشرق القديم

لقد شهدت بلاد الشرق القديم عدة حضارات ربطتها علاقات مع بعضها البعض ونظمتها بموجب قواعد قانونية نذكر من ذلك:

الفرع الأول: حضارة ما بين النهرين

جرى الكشف أن هناك معاهدة حررت باللغة السومارية أبرمت بين دولة-مدينة "لاجاش" ومدينة "أوما" وكان موضوعها تحديد الحدود بين الدولتين واحترامها، كما نصت على حل المنازعات التي قد تحدث مستقبلا بين المدينتين عن طريق التحكيم.

الفرع الثاني: الحضارة الفرعونية

هناك معاهدة كتبت بين "رمسيس" ملك مصر و"حاتوبيل" ملك الحيثيين ضمن إقامة تحالف في حالة ما تعرضت أي منها إلى هجوم تتدخل الدولة لمساعدتها، تسليم الأعداء إذا لجؤوا إلى بلد الطرف الآخر وهو ما يعرف حاليا بتسليم المجرمين السياسيين، وتضمنت المعاهدة أحكاما تتعلق بأسرى الحرب.

الفرع الثالث: الديانة اليهودية

اتصفوا بالانعزالية والتعالي على الشعوب الأخرى وتمجيد العنف وأسلوب الحرب لدرجة أنهم أطلقوا على إلههم "رب الانتقام" ففي العهد القديم تضمن الإصلاح الخامس عشر من سفر صموئيل أمرا صريحا من رب اليهود مفاده: «... ولا تعفوا عن رجل ولا طفل ولا رضيع...».

الفرع الرابع: الحضارة الصينية:

هي الأخرى عرفت بعض القواعد ذات الطبيعة الدبلوماسية مثل مراسيم استقبال الحكام السفراء الآتين من الدول الأجنبية. وخلال هذه الفترة وبالتحديد في القرن السادس قبل الميلاد نادى الفيلسوف الصيني "كونفوشيوس" بإنشاء منظمة دولية تتكون من أعضاء الدول هدفها تحقيق السلم بين الدول.

الفرع الخامس: الحضارة الهندية:

عرفت الحضارة الهندية منذ عام 1000 قبل الميلاد مجموعة من القوانين والتي كانت تسمى بـ"قانون مانو"، حيث تضمن هذا الأخير مجموعة من القواعد المتعلقة بقانون الحرب والقانون الدبلوماسي، كما تضمن قواعد تتعلق بأنسنة الحرب أو ما يعرف حاليا بالقانون الدولي الإنساني. ومن أهم هذه القواعد نجد ماييلي:

- منع المساس بالمبعوث الدبلوماسي.
- منع تخريب الحقول الفلاحية وقطع الأشجار.
- منع قتل العدو إذا استسلم أو العدو النائم أو أسير الحرب.

المطلب الثاني: الغرب القديم

يرتبط تاريخ الغرب القديم بكل من تاريخ الحضارة اليونانية والرومانية:

الفرع الأول: الحضارة اليونانية (الإغريقية)

كانت اليونان القديمة مقسمة إلى وحدات سياسية يطلق عليها المدينة وهذه المدينة كانت تشبه في مفهومها مفهوم الدولة في الوقت الحالي وكانت تسمى "بالدولة المدينة". وصل عددها إلى 12 مدينة.

ساهمت هذه المدن أو الدويلات اليونانية في إنشاء العديد من قواعد القانون الدولي التي تحكم العلاقات في زمن السلم والحرب ومن أمثلتها ماييلي:

- قاعدة تبادل الأسرى،
- قاعدة توجب إعلان الحرب قبل الدول فيها،

- قاعدة تبادل الأسرى،
- قاعدة احترام جثمان العدو،
- قاعدة حماية اللاجئين،
- قاعدة حماية اللاجئين إلى المعابد.

هذه القواعد القانونية التي سبق ذكرها كانت تطبق على المدن اليونانية فقط لاعتقادهم بتفوقهم على الشعوب الأخرى، مما يعطي لهم الحق بإخضاعهم لها. أما علاقات اليونان أو الإغريق مع الشعوب الأخرى كان يحكمها العداء والحرب ولا تخضع لأية قواعد يونانية أو اعتبارات إنسانية.

الفرع الثاني: الحضارة الرومانية

لقد كانت الحضارة الرومانية مترامية الأطراف، الأمر الذي مكنها من فرض سيطرتها على معظم الجماعات السياسية التي كانت معروفة في ذلك الوقت، فكان التنافس شرسا فيما بينها، منطقة البحر الأبيض المتوسط.

ومهما يكن فإن علاقة الرومان مع الدول والشعوب الأخرى حكمها ثلاث أنواع من القوانين:

أولا: قانون مدني: لا يطبق إلا على الرومان دون غيرهم.

ثانيا: قانون الشعوب: مع كثرة عدد الأجانب في روما دفع بالسلطات الرومانية إلى تعيين قضاة خاصين مهمتهم الفصل في النزاعات التي تقوم بين الرعايا الأجانب وفي هذه الحالة يطبق عليهم "قانون الشعوب".

ثالثا: قانون الفتيال: لقد أشرف على تأسيس هذا القانون وتطبيقه مجموعة من رجال الدين عرفوا باسم الإخوة "فتيال" وكانوا يعتبرون بمثابة سفراء يتمتعون بالحصانة وعددهم 20.

جوهر هذا القانون أن هؤلاء الذين يقررون إن كان هناك سبب عادل لإعلان الحرب ضد بلد آخر، كما يمارسون الطقوس الدينية عند إعلان الحرب أو عند عقد السلم.

ومن أشهر الذين عالجوا موضوع الحرب في ذلك الوقت القديس "أوغستين" الذي ميز بين الحرب العادلة والحرب غير العادلة في مؤلفه "مدينة الله".

المبحث الثاني: مرحلة العصور الوسطى: (تمتد من 476 م إلى 1453م):

تبدأ من سقوط روما وتنتهي بسقوط القسطنطينية وهذه الفترة تميزت بنوعين من العلاقات:

المطلب الأول: العلاقات التي سادت العالم المسيحي في أوروبا:

شهدت أوروبا عدة أحداث أثرت بشكل كبير في عدم قيام تنظيم دولي حقيق بالرغم من أنها دامت لأكثر من تسعة قرون لكن لم تكن هناك علاقات دولية حقيقية وأهم العوامل التي حالت دون ذلك نجملها فيما يلي:

-التجزئة والفوضى السياسية: في عهد الإمبراطور "تيودوس" جرى تقسيم الإمبراطورية الرومانية سنة 395 م بين ولديه الإمبراطورية الغربية عاصمتها روما، وإمبراطورية شرقية عاصمتها القسطنطينية، وكان هذا التقسيم سببا في انهيارها على يد القبائل الجرمانية سنة 700 م وعلى أنقاضها قامت مجموعة من الممالك والإمارات المتصارعة يحكمها العداء والحرب وبقي الأمر على حاله سنة إلى غاية 800 م أين تمكن الإمبراطور "شارلمان" من توحيد هذه الوحدات السياسية في إطار ما يسمى بالإمبراطورية الرومانية المقدسة ولكن بمجرد وفاته عام 843 حتى عادت الفوضى والفساد من جديد.

-نظام الإقطاع: انتشر هذا النظام في أوروبا ابتداء من القرن 09 ميلادي ليستمر حتى نهاية العصر الوسيط، هذا النظام يقصد به استئثار الأمير بجميع مظاهر السلطة داخل إقليم معين على أساس أنه يعتبر بمثابة ملك شخصي له حق التصرف فيه كما يشاء.

ترتب عن نظام الإقطاع تقسيم المملكة إلى عدة إمارات وإقطاعيات انتشرت الحروب وكان الحق للأقوى. وفي ظل هذا الوضع من الفوضى السياسية لا يمكن أن يتطور المجتمع الدولي.

-الديانة المسيحية والحروب الصليبية: لقد كانت المسيحية تبشر بالمساواة وتتضمن الكثير من المبادئ الإنسانية، غير أنها لم تعترف بها بالنسبة للشعوب غير المسيحية وأصدق دليل على ذلك الحروب الصليبية ضد المسلمين من سنة 1256 استمرت إلى 1279.

المطلب الثاني: العلاقات التي سادت العالم الإسلامي:

جاء الإسلام بمبادئ اجتماعية وإنسانية سامية يمكن أن تتخذ كأساس للعلاقات الدولية من ذلك:

- أن الإسلام هو عالمي: بمعنى جاء لمخاطبة كافة الناس دون استثناء وذلك استثناء القول تعالى: "وما أرسلناك إلا بشيرا ونذيرا".
 - الإسلام هو رسالة سلام: وهذا أكبر ضربة للتصادمات التي عرفتها أوروبا بمعنى أنه وحدة إنسانية "وجعلناكم شعوبا قبائل لتعارفوا".
 - الإسلام يلتزم بالمعاهدات وينفذها: "وأوفوا بالعهد فإن العهد كان مسؤولا".
- وتجدر الإشارة إلى أن فقهاء الإسلام يقسمون المجتمع الدولي إلى ثلاثة أقسام:

الفرع الأول: دار الإسلام

وهي الأراضي التي تطبق فيها الشريعة الإسلامية وتكون فيها السلطة للمسلمين، فيعيش بها الأشخاص الذين يدينون بالإسلام ويسمون بـ"المسلمون" وكذا شعوب كانت تعيش في دار الإسلام وهم نوعين:

أولا: أهل الذمة: وهم الأشخاص الذين يعتبرون جزء من المجتمع الإسلامي ويتمتعون بكل الحقوق التي يتمتع بها المسلمون مثل الحماية والأمن وضمان حرياتهم الدينية مقابل دفعهم جزية ولكن يتم دفعها فقط عن الرجال القادرين على القتال دون النساء والأطفال.

ثانيا: المستأمنون: وهم الذين يدخلون دار الإسلام مؤقتا طلبا للأمان.

الفرع الثاني: دار العهد:

تشمل البلدان التي لا يوجد بها مسلمون وليس لهم فيها سلطة ولا حكم، ولكن في المقابل لهم عهد معهم.

الفرع الثالث: دار الحرب:

وهي تلك البلاد التي ليست للمسلمين عليها ولاية ولا سلطان وليس بينها وبين المسلمين أي عهد.

المبحث الثالث: المجتمع الدولي في العصر الحديث: (يمتد من 1453 م إلى 1789): يبدأ من تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية "القسطنطينية" إلى غاية قيام الثورة الفرنسية لقد وصل المجتمع الدولي مرحلة متطورة في هذا العصر الذي يبدأ من القرن السابع عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، فأين يمكن هذا يمكن هذا التطور؟

المطلب الأول: معاهدة واستفاليا وميلاد المجتمع الدولي الحديث

تعتبر معاهدة "واستفاليا" المبرمة سنة 1648 منعطفا مهما في مسار تطور المجتمع الدولي، فقد أنهت هذه المعاهدة الحرب التي اشتركت فيها الغالبية العظمى من دول القارة الأوروبية، ورتبت لإقامة مجتمع دولي حديث. وفيما يلي نذكر ملخص عن هذه المعاهدة:

الفرع الأول: خلفية معاهدة واستفاليا

نشبت سلسلة من المعارك أوروبا بين 1618-1648 وهو ما يعرف بحرب الثلاثين، وذلك أنه قد اندلعت الحروب في البداية كصراع ديني بين الكاثوليك والبروتستانت وانتهت كصراع سياسي من أجل السيطرة على الدول الأخرى.

الفرع الثاني: مبادئ معاهدة واستفاليا

تعتبر معاهدة واستفاليا لسنة 1648 أول معاهدة للسلام بين الدول الأوروبية جاءت هذه المعاهدة بالعجيج من المبادئ نذكر منها:

- التزام الدول الموقعة على الاتفاقية على إنهاء حالة الحرب،

- إقرار مبدأ المساواة وما يترتب عن ذلك من استقلال الدولة في مباشرة سلطتها على إقليمها وعلى الأفراد المقيمين عليه،
- نبذ الحرب وعقد المعاهدات وتبادل الدبلوماسيين،
- حق الدولة في إدارة علاقاتها الخارجية وفقا لما تراه مناسبا لها.

ملاحظة: يبدو أن ما جاء في هذه الاتفاقية قد نال رضى الدول، غير أنه للأسف هذه الالتزامات تعنى بالدرجة الأولى الدول الأوروبية فحسب، ولا يعنى أيا من الدول القريبة أو البعيدة منها، ممن تكون على استعداد لبناء علاقات مع الدول الأوروبية.

المطلب الثاني: ولادة التحالفات والاتحادات

يتصل تطور المجتمع الدولي في العصر الحديث بظهور كيانات متميزة هي عبارة عن تحالفات لوحدات سياسية تحمي القيم والأهداف الأوروبية، وكان لها مواقف حاسمة في السياسة الخارجية للدول الأوروبية. وبعضها يعتبر "تحالفات عسكرية" لأنها كانت منظمة بشكل واضح. وتعمل على أساس تقييد اللجوء إلى الحروب في أوروبا، وفيما يلي بعض النماذج لتلك التحالفات.

الفرع الأول: الحالف المقدس

تمكنت ثلاث دول وهي: روسيا وبروسيا والنمسا من الاتفاق في 16 سبتمبر 1815 على تشكيل تحالف فيما بينها، الغرض منه هو السعي لقمع الحركات الثورية والحفاظ على العروش، بالإضافة إلى المحافظة على الأوضاع الإقليمية في القارة. ولقد توسع هذا التحالف فيما بعد ليضم كافة الدول الأوروبية المسيحية ما عدا بريطانيا.

ومن هنا، يبدو هذا التحالف أول تجمع من نوعه بين الدول وإذا تأملنا اختصاصه، سوف نجده كممثل لوحدة دول أوروبا الكبرى في مجال المحافظة على النظام في المجتمع الأوروبي.

الفرع الثاني: الوفاق الأوروبي

أنشئ في القارة الأوروبية تحالف آخر في 20 نوفمبر 1815، يعرف باسم "الوفاق الأوروبي" ويضم أربعة دول هي: روسيا وبروسيا والنمسا وانجلترا بالإضافة إلى فرنسا في وقت لاحق.

تتمثل مهمة "الوفاق الأوروبي" في نوعين من الاختصاصات:

أولاً: التشاور للحفاظ على السلام في أوروبا والعالم، الأمر الذي ساهم في منع نشوب الحرب عامة في أوروبا منذ إنشائه.

ثانياً: التدخل باستخدام القوة لإقرار السلام في أوروبا.

وما نخلص إليه، هو أن كلا من التحالف المقدس والوفاق الأوروبي كانا مرتبطين بالدور السياسي والاستراتيجي للدول الأوروبية، ويمثلان كيانين جديدين في المجتمع الدولي كما أن كل من الكيانين التحالف المقدس والوفاق الأوروبي هما بمثابة الأرضية التي انبثقت منها المنظمات الدولية بصورتها الراهنة.

الفرع الثالث: اتحادات التعاون الدولي

أنشئ عدد من الاتحادات في مجال التعاون الدولي في مختلف المجالات، فهناك اللجان الخاصة بالأنهار الدولية وتهدف أساساً إلى تنظيم الملاحة في الأنهار الدولية (أنشأته معاهدة باريس لسنة 30 ماي 1814، ومعاهدة فينا لسنة 09 يونيو 1815)، اتحاد السكك الحديدية لعام 1890، المكتب الدولي للصحة العامة لعام 1903.

من كل هذا نستخلص، أن الدولة في المجتمع الدولي لم تعد كما كانت في الماضي ملكاً للأسرة المالكة، كما كانت دولة آل عثمان وإمبراطورية آل هابسبورغ أو آل رومانوف، بل أصبحت عنصراً أساسياً في التنظيم السياسي لأوروبا خاصة، كما مثل ميلاد التحالفات في أوروبا تطور آخر في بنية المجتمع الدولي.

المبحث الرابع: المجتمع الدولي في العصر المعاصر: مرحلة القرن العشرين:

طرأت على المجتمع الدولي في القرن العشرين العديد من التطورات، لعل أكثرها شأناً ظهور المنظمات الدولية العالمية، التي هي عبارة عن: «هيئة دولية دائمة تنشأ بالاتفاق بين الدول من أجل تحقيق أهداف ومصالح مشتركة وتتمتع بإرادة ذاتية وشخصية قانونية».

ومن الثابت تماماً أن أول منظمة عالمية هي عصبة الأمم التي تعود نشأتها إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى (1914-1918).

وبعد عام 1945 ازداد عدد المنظمات الدولية العالمية منها والإقليمية وتنوعت، حيث حلت منظمة الأمم المتحدة محل عصبة الأمم وظهرت الكثير من المنظمات الإقليمية مثل منظمة الوحدة الإفريقية (1963-2002).

والكيانات الجديدة الأخرى التي أصبحت تنتمي إلى المجتمع الدولي المعاصر هي حركات التحرير الوطنية التي تقرر على أساس دفاعها على حق الشعوب في تقرير مصيرها. وكذلك الشركات عبر الوطنية التي يقوم تأثيرها في أغلب دول العالم على مستوى النمو الاقتصادي وحتى السياسي، ولذلك تقرر إنشاء سرعة تقنن سلوكها على المستوى العالمي.

ويمكن أن نذكر أيضا الشعوب والفرد الذي يمثل واحدا من رعايا القانون الدولي العام ويتحمل المسؤولية في مجالات كثيرة ضمن هذا القانون، ومن بينها القرصنة، انتهاك أحكام القانون الدولي الإنساني، الأعمال الحربية غير المشروعة.

وهكذا فالصورة الجديدة المجتمع الدولي الحالي، اتسمت بتطور كبير من حيث عدد أطرافه فلم تعد الدولة المستقلة وكاملة السيادة تحتكر عضويته بل أصبحت توجد فيه كيانات جديدة منافسة لها.